عروسة النيل

الفصل السابع عشر

لجأ اوربون الى مخدعهِ يلتمس العزلة فيهِ ويبتغي السكينة في خلوتهِ لكن همومهُ لازمتهُ فتنازعتهُ عوامل الاضطراب وتقاذفهُ القلق والجزع وتمثَّل الشقاء لعينيهِ وامتلأ قلبهُ يأساً وكأنَّ لعنة ابيهِ حلَّت عليهِ فلا تتزحزح عنهُ وسدًى وحاول النوم فلم تغمض عيناهُ وكيف تغمض عينا من غادرهُ القدر فريسة للهمّ والغمّ غضب الحبيب ولعنة الوالد وفرط الحزن وارتكاب الاثم . فاخذ يمشي في غرفتهِ ذهاباً واياباً ثم خلع رداءهُ واستلقى على سريرهِ وهو يتنهد من اعماق فؤادهِ تنهد الحزين التعيس وانار القمر الغرفة فتراعينيهِ لئلاَّ تقعا على ما يكره رؤيتهُ فيزيد عذابهُ واشتدَّ بهِ اليأس فحدثتهُ نفسهُ ان يتناول سيفاً ماضياً ويقتل نفسهُ فيستريح من تعاستهِ ثم انفتح الباب فرأى شبحاً ابيض يدنو منهُ فجمد الدم في عروقهِ لكنهُ لم يلبث ان استعرف القادم فاذا هو ماري ابنة اخيهِ فصاح بها مغتاظاً

— ماذا تطلبين فانتفضت الفتاة وجمدت في مكانها ثم مدَّت ذراعيها كالمستغيث وقالت

— سمعتك تتأوَّه وعلمت اني علة شقائك فلم استطع النوم فاتيت . . . . .

— نعودي الآن الى غرفتكِ ونامي فلن تسمعي صوتي بعد . اما هي فهزت رأسها وقالت وهي تبكي

— لا اعود حتى تغفر لي ثم اسرعت اليهِ وطوقت عنقهُ بذراعيها وقبلت خديهِ وجبينهُ فاحس بشعور غريب وكأن نفورهُ زال باسرهِ فدمعت عيناهُ وذهل عن حزنهِ وشقائهِ وظلاَّ كذلك بضع دقائق ثم امسك يدها وقال

— ولكنك محمومة يا ماري والبرد يؤذيكِ . ثمَّ لفَّها بردائهِ والعبرات تجري على خديهِ وقال سكني روعكِ الآن وعودي الى مخدعكِ اما انا فسأتجلَّد واقاتل نفسي ولست اجهل انك لم تبغي اذيتي فيما فعلتِ ولست بناقم منكِ .

— لا استطع النوم يا عمَّاهُ حتى ابوح لك بجميع ما في نفسي . فاعلم اني فعلت ما فعلت لا لقصد الايقاع بك ولكن انقاذاً لباولين وانت ادرى مني بحب جدي لها وبما كان لها من المنزلة الرفيعة في عينيهِ فشقَّ عليَّ ان يموت وهو يحسبها سارقة كاذبة وخيل لي ان السكوت في مثل تلك الساعة جريمة لا تغتفر ويشهد عليَّ مخلصي ان غايتي الوحيدة كانت تبرئتها ولو سكتُّ لمتُّ

— احسنتِ في ما فعلتِ فعملك غريق فلا يخاف من البلل واما باولين فهلاك ظاهر فقد ظهر حقها وافتضحت براءتها ولما كان حبي لها يفوق الوصف فقد صالحتك عن طيبة نفس وساحبك اضعاف حبي قبل فانا في حاجة الى الاحباء والاَّ باتت حياتي عبئًا ثقيلاً عليَّ فقد كلفتني حماقتي خسارة اعزّ الناس اليَّ فافهمي ما قلت وقبليني وعودي فارقدي. فقالت ماري

— احبب باولين هذا الحبَّ المفرط وكاترينا

— تجاوزي عنهما واستفيدي من امري حكمة فقد ارتكبت في ساعة طيشٍ اثمًا واردت اخفاءهُ فارتكبت اثمًا آخر وآخر حتى صارت هذه الآثام جبلاً انقلب عليَّ فسحقني وصرت اتعس الناس بعد ان كنت من اسعدهم وتعكر صفاء عيشي وخسرت باولين ولو اقترنت بها يا ماري لكان عمكِ الآن اسعد خلق الله ولكن لا سبيل الى ردّ ما فات فاذهبي الآن ومتى كبرتِ يسهل عليكِ ادراك هذه الامور

— لقد ادركتها تمامًا فاذا كنت تحب باولين كما تقول فعلامَ لا تميل اليك وانت جميل محبوب وفي طاقتك ان تقوم باعمال عظيمة فباولين تحبك اذًا . . . . اتغضب اذا قلت

— قولي

— لو درت باولين بما تقاسيهِ من الشقاء وايقنتْ انك طيب السريرة لم ترتكب الاثم سوى مرة واحدة لغفرت لك ذنبك ويلوح لي انا الطفلة الجاهلة ان مثلك مع جدّي مثل الابن الشاطر المذكور في الانجيل فقد اقترفتما على غيظ

— ولكنهُ لعنني

— كلاَّ فانا احفظ جميع ما قالهُ فقد اشار الى فعلتك السيئة وفاه بتلك الكلمات المخيفة وامرك بالانصراف من وجههِ

— وما الفرق بين الملعون والمطرود

— بينهما فرق كبير فقد اصاب في غيظهِ واسفهِ لكنَّ الابن الشاطر صار اعزَّ ابني ابيهِ اليهِ فذبح لهُ العجل المسمَّن وغفر لهُ وسيغفر لك جدّي في السماء وتغفر لك باولين فانا اعرف الناس بها وسترى صحة قولي نعم ان كاترينا تحبك ولكنها طفلة مثلي فاذا كلمتها برفق واعطيتها هدية سنية تعزَّت نعم انها تستحق العقاب على شهادة الزور ولكن قصاصها أخفُّ من قصاصك على كل حال

فوقعت كلمات تلك الفتاة الطاهرة في قلب عمها وقوع الندى على العشب اليابس فانتعشتْ وردَّت اليهِ بعض الحياة والعزم ولما انفصلت عنهُ اخذ يردّد اقوالها لنفسهِ ويعجب بها

الفصل الثامن عشر

كان تحنيط الجثث وحرقها محظورين على اهل ذلك الزمان بامر الملوك ورجال الدين وكان على اهل الميت ان يسرعوا في دفنهِ الاَّ الشرفاء والاعيان فان جثثهم تطيَّب وتعرض في احدى الكنائس التي بناها الميت او انفق عليها من مالهِ وكان المقوقس قد اوصى بدفن جثتهِ في كنيسة ماري يوحنا في الاسكندرية مدفن ابيهِ لكن حمام الزاجل الذي نقل خبر وفاتهِ الى البطريرك عاد ينقل امرهُ الى المطران بدفن المتوفى في مدفن اسرتهِ في منف لاسباب يصعب معها العمل بوصيتهِ

وبعد وفاتهِ بيومين احتفلت المدينة بدفنهِ وكان موكب الجنازة مهيبًا مشى فيهِ اهل منف ووفود البلاد كأن على رؤوسهم الطير وجاء عمرو بن العاص واعوانهُ من القسطاط فشهدوا الحفلة دلالة على ما كان للفقيد من المنزلة في عيونهم ولما عبروا الجسر ساروا ببطء تحف بهم الهيبة والوقار فاتجهت اليهم الانظار وكان لملامحهم وخوذهم ودروعهم وجيادهم اعظم اثر في الموكب ولما فرغوا من الجنازة استحثوا جيادهم وعادوا من حيث اتوا كأنهم السهام اطلقها الرامي وحجبهم الغبار عن ابصار الجمهور فلم يسمع سوى قرقعة حوافر خيولهم وكأنهم امراء في مجدهم ومنعتهم لا تستطيع اعظم الممالك على ردّ غاراتهم

ووقف اوريون الى جانب عمرو فطوقتهما الجماعة ورمقتهما الابصار معجبة بهما هذا بطول قامتهِ وهيبتهِ وسكينتهِ وذاك بجمالهِ وشبابهِ وحسنهِ وكان عمرو محدقًا الى ما امامهُ لا يلتفت يسرة ولا يمنة كأنهُ طود من الرواسي امَّا اوريون فكان ينظر الى من في الموكب حتى اذا ما وقع نظرهُ على باولين انقشع بعض الهم عن جبينهِ لكنَّ سمات الغيظ لم تمحَ ولم تجفَّ علة غيظهِ على عمرو واهل منف بعد ان رأوا ما رأوا من عدم اكتراث رجال الدين لوفاة ابيهِ وتعيدهم وقلة من شهد الجنازة منهم اذ لم يمشِ امام مركبة الميت سوى المطران وكاهن واحد ونفر من المرتجين

ولمَّا بلغوا المدفن انزلوا الجثة وفاه المطران بتأبين وجيز وعقبهُ المرتجون فجاء ترتيلهم ضعيفًا خافتًا لكنهم لم يكادوا يفرغون حتى ارتفعت اصوات ذلك الحشد الغفير واشتركوا في ترتيل ترتيلة الجنازة حتى دوى السهل باصوات الالوف ولم تسمع مدافن منف في الدهر الغابر رثاء كالذي رثى بهِ المصريون المقوقس ولم يخف على عين عمرو النقادة تقصير رجال الدين فقال بصوت جهوري — اراهم يطلبون ان يكفِّر الميت عمَّا فعلهُ الحيُّ بالاتفاق معنا حبًّا بمصلحة بلادهِ وخيرها. فاجاب اوريون

— ذلك امر البطريرك ولكن ورحمة ابي ان يوماً يقفل فيهِ بنيامين ابواب السماء سيفي وجه افضل الخلق ليكونن يوم شؤم عليهِ . فقال عمرو

— اما نحن فمفاتيح الجنة في قبضات سيوفنا فجئني يوم السبت فلي كلام معك وتعال نحو غروب الشمس فاذا لم تجدني فانتظرني ريثما اعود ولمَّا قال ذلك وضع يدهُ على عنق جوادهِ فتقدم اوريون يريد اسعافهُ فسبقهُ عمرو وامتطى صهوة الجواد كأنهُ فتى ثم اشار الى اتباعهِ بالانصراف

وكانت باولين واقفة مع السيدة نفورس في باب المدفن وهما بحيث تسمعان ما دار بين الرجلين فقرأت في وجه اوريون ما راعها وكأن وفاة ابيهِ وما تلاها من الحوادث بدلتهُ تبديلاً فلما فرغوا امسكت يد نفورس وسارت بها الى المركبة وعادت ومرضعها الى البيت وكانت اثناء الطريق تفكر في جميع ما رأت وسمعت ولم تفارقها صورة اوريون وقد وقف امام المدفن ورفع ذراعهُ الى السماء واطبق يدهُ واقسم قسمهُ وعلمت انهُ رآها ولم تنسَ ما اورثتها تلك النظرة من خفقان القلب فحارت في امرها ولم تهتدِ الى الخطة التي تجري عليها في المستقبل فكانت تارة تقرُّ على الابتعاد عنهُ وطوراً تحنُّ اليهِ وترثو لحالهِ فترى من الواجب عليها ان تأخذ يدهِ وتدلهُ على السبيل الذي يجب عليهِ سلوكهُ وظلَّت كذلك وهي لاهية عن حديث المرضع حتى وصلت الى البيت فشاقتها سكينتهُ وشعرت بالراحة منذ وطأت عتبتهُ فرأت ان سعادتها لا تتمّ فيهِ ما لم تقطع يدها جميع ما يربطها باوريون واهل بيتهِ فعزمت ان تنقطع عن التفكير بهِ وان تطرح عنها ما دار في نفسها من الميل اليهِ او عنهُ

وكان البيت الذي اختارتهُ جامعاً لاسباب الراحة وهناء العيش والسكينة تلك السكينة التي طالما اشتهتها ايام إقامتها في بيت خالها وزادها تعلقاً بهِ قربهُ من دير الراهبات وكون رئيسة الدير صديقة لوالديها عرفتهما في القسطنطينية وحافظت على ولائهما طول حياتها فلما لقيت ابنتهما في منف عنيت بامرها كأنها ابنتها

وكان اهل البيت آية في اللطف وكرم الاخلاق فافرغوا عليها الرعاية والاكرام وكان روفينس شيخاً وقوراً كامل الشيب هامتهُ لكن ثلج المشيب لم يبلغ صدرهُ ولا برَّد عواطفهُ فظلَّ طروباً رقيق المعشر كريم الفؤاد وديعاً كالطفل جريئاً لا يخشى في الحق لومة لائم وهو على ايسارهِ محبٌّ للعمل يكره البطالة وزوجتهُ نخيلة القوام صفراء الوجنتين على وجهها مسحة من جمال شبابها محبة لزوجها قائمة على خدمتهِ تستسهل الصعب في سبيل مرضاتهِ وتنفق قواها في استكمال معدَّات راحتهِ حتى قال الطبيب انها تبحث عن قشة في طريقهِ فترفعها من مكانها لئلاَّ تعوق سيرهُ

ورزقا ابنة وحيدة اسمها هيلانة مليحة الشكل ديفاء القوام بعينين زرقاوين وشعر طويل ذهبي فهذه اذ رأت امها تبذل جهدها في خدمة ابيها وان لا عمل لها في البيت حسبت وجودها فيهِ مما لا فائدة منهُ فعزمت على التخلي عن العالم والترهب في الدير المجاور هذا على شدة حبها لابويها واستعدادها لبذل حياتها في مرضاتهما امَّا ابوها فاعترضها في ذلك بقولهِ ان اجلهُ قريب فلا بدَّ من رفيقة لزوجتهِ تتعهدها بالعناية والحب بعد وفاتهِ فلمَّا جاءت باولين الى بيتهم تعلقت بها نفس هيلانة ورأت فيها مثالاً للكمال والجمال واللطف فصارت تقضي معظم وقتها في عشرتها والباقي في مساعدتها على العناية بالجريحين اي رستم والفتاة ماندالي فان الطبيب ارتأى نقلهما من بيت المقوقس بعد وفاتهِ لصعوبة تمريضهما فيهِ فخاطب روفينس بشانهما وفاوضهُ في تقدير الاجرة ونحوها فاجاب الآخر

— اهلاً وسهلاً بهما واذا رغبت باولين في البقاء معنا فلتبقَ على الرحب والسعة على شرط ان تنفصل ساعة تريد ذلك او تريدهُ اذ قد يحدث ان يعسر الاتفاق بين مثلها وامثالنا لتفاوت اقدارنا اما مسألة الاجور فتولَّ تعيينها ولا تخل فاذا صدق ظني فالسيدة باولين تفضل ان تقوم بدفع نفقاتها على ان يمنَّ عليها امثالنا بها وهي على ما تعرف من عزَّة النفس ومتى ادَّى المرء نصيبهُ من نفقات البيت احسَّ انهُ واحد من اهلهِ

فسرَّ الطبيب لكلامهِ ونقلهُ الى باولين فارتاحت اليهِ ولم يطل بها المقام حتى تحققت صحة قول الشيخ

الفصل التاسع عشر

وبعد ان تناولت باولين طعام العشاء في مساء يوم الجنازة نهضت تريد البستان فرافقها روفينس وهيلانة اليهِ وكانت الشمس قد اوشكت ان تغيب وهي ترشق اشعتها على الازهار والاوراق فتزيدها رواء وبهاء فجلسوا الى جانب ساقية (ناعورة) يديرها ثور وحمار فينصب ماؤها في صهريج ويجري منهُ في جداول متفرقة في انحاء البستان وفاح اريج الازهار فضوَّع الهواء واستولت السكينة فلم يعد يسمع سوى ترنيم الراهبات في الدير فدارت هيلانة الى مصدر الصوت واصغت اليهِ فاشار ابوها الى باولين وقال

— هناك كنزها وقلبها ولعلهُ خير الامور لها ولكنَّ الله لا يشاء ان يتخلى الولد عن والديهِ

— صدقت ولا شيء يمنعني عن الترهب سوى املي بلقيا ابي فان نفسي تتوق الى سكنية الدير كما تتوق نفس هيلانة اليها وقد كنت قبل نزولي في بيتكم تعبة حزينة فلمَّا ابتسم خفَّ بعض ما بي من الهمّ وسالتني هنا ما طلبتهُ هناك واشارت الى بيت الوالي ثم قالت تأمل ابنتك

فهي في موقفها مثال الطهارة تبعث منهُ التقوى والفضيلة ولولا خشيتي ان ازعجها لشاركتها في صلواتها قالت هذا وسارت الى طرف البستان الآخر وتبعها روفيس حتى بلغا السياج فانصت شيئًا ثم قال

— اراهم يحاولون ثغر السياج ايضًا فقد فاجأتُ امس احد العبيد متلبسًا بالفعل فخالت الاشواك دون قبضي عليهِ وأرى اليوم غيرهُ فانظريني ريثما اذهب فآتي بسوطي

ولما غاب عن بصرها سمعت من يناديها باسمها فالتفتت الى السياج وابصرت وجه فتاة مطلاً بين الاغصان المشتبكة فعرفت ان القادمة كاترينا فقالت هذه

اتأذنين لي في الدخول فلي شيءٌ اقولهُ لك فاومأت باولين بالايجاب فانسلَّت كاترينا اليها واسرعت تحييها ثم جمدت مكانها وارخت يديها فدنت منها باولين وقبلتها وقالت

— علامَ لا تدخلين من الباب فهوذا روفيس عائد بسوطهِ ثم دارت الى الشيخ وقالت قف فانَّ المعتدي يطلبني ولا يبغيك ولعلَّك تعرف هذه الفتاة فهي جارتك

— اتعرفينني يا فتاة

— نعم فقد رايتك مئة مرة

— ولكنكِ تجاهلتني فخرجت سياجي ولم تشائي الدخول من الباب كما يفعل المعارف فسألتها باولين

— افلا تعرفين هيلانة

— طالما وددت مكالمتها ولكنَّ امي .... فقال روفياس

— وهل ترى امك فينا عيبًا فتحظر عليكِ مكالمتنا

— لاسمح الله ولكن لكل امرئ شأن فهي لا تكاد تعرفك اذ يندر ان تراك في الكنيسة.....

— فحسبتِ انا من الطغاة الفجرة فقولي لها انها اثمت في ظنها فاذا كنتِ من صديقات باولين وتريدين زيارتها فتعالي من الباب لا من السياج وسترين انا قوم لنا ما يلهينا عن الشر من العطف على المحتاجات والبشر ذوي العاهات وخير خدمة يخدم بها المرء باريهُ سعيهُ في تخفيف مصايب مخلوقاتهِ فقولي هذا لامك وتعالي ما شئتِ ثم ضحك وانصرف في طريقهِ فقالت كاترينا

— لقد عرفت هذا الشيخ واهل بيتهِ واعلم كيف يقضون اوقاتهم وطالما راقبتهم من برج بيتنا لكن لا تعرفين طبع امي فاذا ابغضت احدًا فلا سبيل الى ازالة كرهها وليت هيلانة صديقتي

— اذًا لكانت صداقتها من خير الامور لكِ وقد حان لكِ ان تعاشري من هم اكبر من ماري فقالت كاترينا

— يربك لا تقولي فيها سوءًا فهي متفردة في الاستقامة والفهم على صغر سنها ثم تنهدت وبكت بكاءً مرًّا واجهشت في العويل حتى لم تستطع النطق فامسكتها باولين وسارت بها الى جميزة فاجلستها الى جانبها وطوقتها بذراعها وهي تلطف حزنها بكلامها العذب وظلتا كذلك نحوًا من الزمن نشرت فيه الظلمة جناحيها على الارض فرأت باولين ان تعود الى البيت لكنها لم تشأ ان تتخلى عن تلك التعيسة وتوسلت كاترينا اليها ان تبقى معها وتصغي الى كلامها فاضطرت الى البقاء واندفعت كاترينا تحدثها بما جرى لها فاخبرتها عما كان اوريون يبديه من الميل اليها وعن تحوله عن حبها ثم اسهبت في وصف تعلقها به وشدة غيرتها من باولين تلك الغيرة التي اعمت بصيرتها فشهدت شهادة زور حتى نبهتها ماري الى انها فتحت عينيها ورأت الهاوية فاغرة فاها امامها الى ان قالت ولما مات المقوقس ذهبت امي الى بيتهم فرافقتها وطلبت ماري فقيل لي انها مريضة فخرجت الى القاعة التمس النسيم البارد فسمعت امي تصخب وتصيح ورأيت من الحكمة ان ابتعد عن مكانها فسرت الى الجزء المشرف على النيل وهناك عثرت باوريون وقد لبس السواد والقى رأسهُ بين يديهِ فلم يحسَّ بقدومي وكان على شدة الحرّ يرتجف كمن اخذتهُ البرداء فرثيت لحالهِ ودنوت منهُ اعزيهِ فهبَّ واقفًا كمن لسعتهُ افعى فرأيت على وجههِ صفرة الموت وفي ملامحهِ امارات اليأس والجزع الشديدين فارتعت وانعقد لساني ثم انتفض ودنا مني فوضع يديهِ على كتفيَّ وحدق بي طويلاً فاذا عيناهُ حمراوان كالدم وبعد هنيهة تنهد من اعماق فؤادهِ وقال

— لقد اسأتُ اليكِ يا كاترينا فحملتك على الاشتراك معي في جرمي مستعينًا عليكِ بسلامة قلبكِ وحسن نيتكِ على أنَّ حمل الاثم الذي ارتكبناهُ سقط على عاتقي فكان الجزاء مثة ضعف الجريمة قال هذا وغطى وجههُ بيديهِ وعاد فجلس مكانهُ ثم وقف وصاح قائلاً اغفري لي اذا استطعتِ ذلك فدنوت منهُ اريد تسكين بعض ما بهِ فدفعني عنهُ بلطفٍ وقال لقد حان لنا ان نفسخ خطبتنا قلتِ احبكِ كما تستحقين ولكني احبُّ فتاة اخرى حبًّا شديدًا وهي اول مَن احببتُ وآخر من احبُّ ولقد اتيت امرًا فظيعًا ولكني افضل احتمال غيظك والآلام المبرّحة على المثابرة على خطبتنا فاخدعكِ واخدع نفسي ثم قبَّل جبيني كانهُ ابي وانصرف الى البستان

وحينئذٍ طلعت امي ووجهها احمر كالدم فامسكت يدي وجرَّتني الى المركبة وهي تقول يا للوقاحة والخديعة فمن لي بما يخفف وطأة مصيبتك يا وحيدتي فقد ضحوكِ على مذابح مطامعهم فاجبتها لقد عملت يا امَّاهُ بالامر ولن يصعب عليَّ احتمالهُ وفي الغد اتانا نيلس خازن يتهم وفي يدهِ حق من الذهب الابريز المرصع بالفيروز واللآلي كان المقوقس قد اوصى بهِ لي فابت

امي اخذهُ وطلبت اليهِ ان يعيدهُ الى السيدة نفوس وقد سمعتها تقول ان في نيتها مغادرة مصر فتقضي بقية عمرها في القسطنطينية او غيرها من مدن الروم وهكذا خسرت صداقة ماري وعشرتها فتصوري تعاستي وشقائي فاذا لم تاخذي يدي بقيت وحيدة في منف لا صديق لي ولا انيس فلا تتخلي عني

— ساعطف عليكِ فصادقي هيلانة

— حبذا الصداقة صداقتها لو تأذن فيها امي. ثم اخذت تشكر امرها وما لاقتهُ من امها واوريون وظلّت الفتاتان كذلك حتى احسّت باولين بالبرد ورأت القمر قد تكبد السماء فقالت هيّا بنا فقد كاد الليل ينتصف فبيت كاترينا مذعورة وودعتها قائلة ساعود من حيث اتيت وستؤنبني امي على خروجي

— لن تذهبي من السياج وسآتي بروفينس فنرافقكِ الى بيتكِ ونطلع امكِ على علة تأخركِ

— بربكِ لا تفعلي فهي لا تطيقك ولا تطيقهم وقد حظرت عليّ زيارتك . قالت ذلك وعادت الى السياج فاخترقتهُ

وعادت باولين الى غرفتها وهي تفكر في حديث كاترينا وكلام اوريون فتحن لرؤيتهِ ثم تنثني فتنفر من ذلك وترى من الذل ان تستند الى اليد التي لطمتها وبينما هي كذلك ران الكرى على اجفانها فنامت ونحو الصبح رأت اوريون في رؤيا رأتهُ يدنو منها راكباً على جواد ادهم كالليل وقد ارتدى ثياب الحداد وبدا الخمول والاصفرار في وجههِ فارادت الفرار منهُ فلم تستطع حراكاً وحينئذٍ مدّ يدهُ وانتشلها ثم اردفها وراءهُ ونقدّم بجوادهِ يريد النهر فاجتاز الضفة وغاص في الماء فاخذت تتوسل اليهِ ان يعود وهو لا يجيب ثم اخذ الماء يعلوها فطوقت عنقهُ بذراعيها وللحال تبدلت صفرتهُ بالاحمرار هذا والماء يعلو حتى غمرها الى اكتافهما وهما ساكتان فخطر لها ان تسأله عما اذا كانت هي "الفتاة الاخرى" التي اشار اليها في حديثهِ مع كاترينا ولكن الامواج دهمتهما وعصفت الريح وهوى الجواد الى الاعماق وسمعت اوريون يقول "انها انتِ" ثم فصلتهما الامواج فشرعت تغرق ومدّت يديها تطلبهُ وحينئذٍ افاقت وجبينها يتفصّد عرقاً فاذا بالمرضع واقفة بجانب سريرها فقالت لها

— ماذا دهاك الليلة فقد سمعتكِ الساعة تدعين اوريون دعوة الخائف ثم عدتِ فدعوتهِ دعوة المحب المشوق

الفصل العشرون

ونحو الظهيرة دخلت باولين وهيلانة غرفتي الجريحين لتغيير الضمادات كالعادة وكانت باولين

ذاهلة عمَّا حولها تفكر في حلمها وتحسب لهُ الف حساب وعلمت ان اوريون سيأتي لزيارتها فعزمت عزماً اكيداً على رفض مقابلتهِ وامرت مرضعتها بان تنوب عنها ونحو الساعة الثالثة بعد الظهر اشتدَّ بها القلق فاخذت تطوف في انحاء البيت فسمعت وقع حوافر فاطلَّت من احدى النوافذ لترى من القادم فابصرت فارساً يعدو بجوادهِ فحسبتهُ من اصدقاء روفينس لكنهُ لم يلبث ان ترجل حتى عرفتهُ انهُ كاتب اوريون فاستشاطت غيظاً ظناً منها بانهُ ارسلهُ بمالها وعدَّت ذلك اهانة لها ثم جاء روفينس وبيدهِ كتاب فقال لم يأتِ اوريون بل ارسل هذا الكتاب اليكِ والرسول ينتظر الردّ فاخذت الكتاب واسرعت الى غرفتها وفضتهُ فاذا فيهِ ما نصهُ

"من اوريون بن جريج المقوقس الى نسيبتهِ ابنة توما الدمشقي سلام

"كتابي هذا اليكِ حاولت كتابتهُ غير مرة فاخفقت وفيهِ اطلب نعمة واقترح اقتراحاً فاستحلفكِ باسم الرجل الذي احبكِ كابنة وتمناكِ عروساً لابنهِ ان تقرإي ما يكتبهُ اتعس الناس اليكِ فتهبيني النعمة التي اطلبها باسم ابي

"ولست اخاطبكِ خطاب محبٍّ لحبيبتهِ خطاب رجل لا يهوى سوى امرأة واحدة على الارض اذ طالما وخاصمها كما يخاصم الدَّ اعداءهُ فاني ساحبكِ ما دام في صدري عرق ينبض ولست بناسٍ انني خسرت ثقتكِ وحسن ظنكِ بي واعلم يقيناً انني عدمت الفرح والسرور وساعدمها الى الابد الاَّ اذا قيض الله لي بالنجاة فاتمَّ احدى معجزاتهِ في قلبكِ فقد استبدل ابي البركة باللعنة فلعن ابنهُ الذي نجَّس مجلس القضاء فاخذ بثاركِ وبدَّد شمل الفرح من قلبي"

ولما انتهت باولين الى هذه العبارة امتقعت وادركت مغزى كلام كاترينا وفهمت علَّة تعاستهِ وحزنهِ وعجبت لحالها كيف يلعن ابنهُ على حبهِ وحنوّهِ وعطفهِ وودَّت لو تقف على تفصيل الامر ثم عاودت القراءة

"وقد اتيت اليكِ الآن كما انا رجل كسير القلب يمنعهُ صغر سنهِ عن الاستسلام لليأس وتنهض بهِ همتهُ التي ورثها عن اجدادهِ الى طلب المجد تشبهاً بهم فاتوسل اليكِ ان تأذني لي بلقياكِ مرة واحدة فاذا فعلتِ فثقي انني لا افوه بلفظة تشفُّ عمَّا في قلبي من الوجد الذي يكاد يقتلني!

"اما اموالكِ فمن الواجب اعادتها اليكِ مع ربحها الذي اثمرتهُ بعناية ابي ولا يخفى عليكِ ان العناية بالاموال في هذه الايام محفوفة بالمصاعب لان البلاد في قلق مستمرّ فلا يحسن ان تدفني هذه الاموال كما يفعل بعض القوم كما انهُ لا يحسن ان تبتاعي بها عقارات لأن مقامك في مصر غير مضمون وقد تحتاجين الى هذه الاموال في ساعة يستحيل الحصول عليها بالسرعة

المطلوبة ولا اشير عليك بوضعها في مصارف الاسكندرية فقد ضاعت الثقة المالية بها وهي تفلس الواحد بعد الآخر ولما كانت هذه الاعمال خارجة عن شؤون النساء فاني اقترح ان يوكل النظر فيها الى لجنة مؤلفة من نيلس وروفينس ونيلس حارسنا الذي تعرفين امانتهُ وان تجتمع هذه اللجنة غداً في بيت روفينس ولك ان تشهدي الاجتماع بنفسك اذا شئتِ فاذا اتفقنا على خطةٍ فالتمس ان تمني عليَّ بمقابلتكِ بضع دقائق اعيد فيها اليكِ شيئاً لهُ عندكِ قدر عظيم ثم تمنحينني غفرانكِ فاني في حاجة اليهِ فاذا قرأت هذا الكتاب فجودي بلفظة "نعم" ينقلها كاتبي اليَّ فآتيكِ في الساعة الثانية بعد الظهر والاَّ فنيلس يحمل اليكِ اليوم مالكِ وليحفظك الله ويلهمكِ الرحمة والعفو"

وكانت باولين اثناء قراءتها تنقبض نفسها مرة فتعمد الى تمزيق الرسالة ثم تحجم وتستطرد القراءة فلما فرغت من تلاوتها شرعت تفكر في رقة التعبير واهتمام اوريون بالها فوقفت امام النافذة برهة ثم دعت هيلانة واوصتها بالعناية بالجريحين فلحظت هذه اضطرابها وصفرتها فسألتها عن الخبر فقبلتها باولين وتحولت الى غرفتها حيث اعادت قراءة الرسالة فرأت في تضاعيف سطورها بينات حبهِ الصادق وتوبتهِ الخالصة فتحركت عواطفها ورقَّت لهُ وشعرت كأنَّ في قلبها دافعاً يدفعها اليهِ ولكنها ابت ان تدعو ذلك الشعور حبًّا فقالت في نفسها هذا تأويل حلمي الليلة فلن يأخذني الفارس معهُ الى النهر فنفترق معاً ولكني سارفعهُ الى قمة المجد وادلُّهُ على اشرف خطة في الحياة فيتيمها ثم عمدت الى صندوقها فتحتهُ وتناولت ادوات الكتابة وجلست تريد ان تكتب اليهِ لكن عواطفها تغلبت عليها فجمدت قريحتها فنزلت الى الدار حيث كان الكاتب نائماً فايقظتهُ وكلفتهُ ان يقول لسيدهِ "نعم" ثم خطر ببالها انها لم تطلع روفينس والطبيب على اقتراح اوريون فعادت ادراجها اليهما واخبرتهما فاجابا بالايجاب

الفصل الحادي والعشرون

وفي العشية جلس روفينس واهل بيتهِ ونيلس وباولين في البستان يتنشقون الهواء الرطب ويقضون السهرة بالاحاديث والنكات وكان البدر يمطر نورهُ على الاشباح فيكسوها حلَّة من الفضَّة والنسيم البليل يهبُّ من الشمال فيزيد الليل بهجة والصدور انشراحاً فاقترح روفينس ان يظلوا ساهرين فيرقبوا خسوف القمر تلك الليلة فارتاح الجميع الى اقتراحهِ واخذ الرجلان يبحثان في الخسوف وكلاهما يأسف على ما تفعلهُ الكنيسة من استرسالها الى متابعة العامَّة في تصديق الخرافات حتى باتت تحسب امثال هذه الظواهر ممَّا يتشاءم بهِ فعمد رجالها الى اتخاذ الحفلات والمواكب ورفع التضرعات الى الله ليدرأ شرها عن البلاد فقال روفينس

— ان تفسير الحوادث الطبيعية التي تحدث طبقًا لنواميس ازلية والتي يمكن تعيين زمان وقوعها بالضبط قبل حلولها واتخاذها دليلاً على غضب الله من باب التجديف كأنما عقاب الانسان وثوابهُ مرتبطان بسير الشمس والقمر فقد نمي اليَّ ان المطران والكهنة سيسيرون في طليعة الموكب مرنمين مبتهلين فحملوا الشعب بفعلهم هذا على الايقان بان حادثة طبيعية بسيطة لها معنًى خارج عنها . فقال الطبيب

— واذا ازداد المذنب الذي اكتشفهُ مريبًا وضوحًا وجلاءً وانتشر ذنبهُ في الفضاء فهناك الطامَّة الكبرى والمصيبة العظمى فتهلع قلوبهم وتجزع افئدتهم فقد رأيتهم اليوم كالمجانين فقالت هيلانة

— لكنَّ المذنب نذير الحرب والقحط والجوع والوباء وقالت باولين

— وهذا ما كنت اعتقدهُ فاجاب الطبيب

— وهو خطأٌ وعندنا الف دليل على فسادهِ ومن الاثم حمل العامَّة على الاعتقاد بهذه الخزعبلات ولا يخفى عليكما ان اضطراب الافكار وانخفاض النيل من اعظم الاسباب العاملة في تفشي الاوبئة وسترى ياروفينس صحة قولي يوم نعدّ مرضانا بالمئات فاجاب الشيخ

— انا رهين اشارتك

ودار الحديث على الامراض والاوبئة وشدَّة اعتناء روفينس بذوي العاهات ثم نهض فيلبس فحيَّاهم وانصرف الى احد مرضاهُ وبقي روفينس يحدث بما اتفق لهُ من النكات والطرف والنوادر في اسفارهِ ثم اشار الى ميلهِ الاصلي الى علم الجراحة فاخبر باولين عمَّا اتفق من الوقت في الدرس والبحث بينما كان يشتغل في علم البيان الى ان قال وترك لي عمي ثروة طائلة امنت معها جانب الفقر فتخليت عن صناعتي وعمدت الى التطبيب ثم رافقت جنود الروم الى حرب الفرس كجراح فانكسر حقي وقاسيت ما يقاسيهِ الجرحى من الآلام التي لا تطاق فزاد عزمي ثباتًا على تخفيف مصائب اخواني واسعاف ذوي العاهات بمعرفتي واموالي ولما بدا لي قصوري في الصناعة دخلت المدرسة حيث عرفت فيلبس وهو بعد فتًى وانا رجل وهناك ابتدأت صداقتنا وهو الذي رغَّبني في سكنى منف . ثم اطنب في مدح الطبيب وابدى شدة اعجابهِ بذكائهِ وهمتهِ وقال انهُ على صغر سنهِ يفوق الشيوخ حكمة وتعقلاً

ولما فرغ من حديثهِ قبضت باولين على يدهِ وقالت لو كنت رجلاً لشاركتك في اعمالك ومع ذلك فقد سمعت فيلبس يقول ان في طاقة المرأة الاهتمام بمثل هذه الاعمال وقد لقيت في بيتكم سعادة لم اكن لاحلم بها منذ شهرين فلتكن زوجتك لي امًّا وكُن انت لي بمقام ابي فتهلل الشيخ فرحًا وقال

— على الرحب والسعة فانتِ ابنتنا فكوني اختاً لهيلانة وعليها ان تقتدي بك ثم قال

— ارفعن ابصاركنّ الى العلاء فقد ابتدأ الخسوف وهوذا "ستْ" بصورة الدبّ يبتلع عين حورس بحسب زعم المصريين القدماء ألا ترين الظلّ يحجب سطح القمر فقد كان القدماء عند ابتداء الخسوف يقرعون الطبول وينفخون في الزمور ويضجون ويصرخون لعلّهم يطردون الخبيث الذي يبتلع القمر وكان آخر ما جرى من هذا القبيل في مصر منذ اربع مئة سنة لكن المسيحيين اليوم يحطون منزلتهم فيتقلون بعبدة الاصنام ولست اذكر بلاداً نصرانية دخلتها الاّ رأيتهم يفعلون ما يفعلهُ اصحابنا اليوم نعم ان ديننا نقض اديان الاقدمين لكن خرافاتهم علقت بنا فاندست في حفلاتنا. هلمّ انظرنّ الموكب فهم يعولون كأنّ الدب يبتلع القمر فعلاً او كأنّ العالم سينقضي في قلوبهم مرض والذين يلبسونهم لباس الخوف هم في ضلال مبين

(ستأتي البقية)

الصحيح من الفراسة

الكبرياء

ان الاخلاق القديمة المغروسة في طبع الانسان اي التي مارسها اسلافهُ منذ الوف من السنين كالحب والبغض واللذة والالم والتكبّر والتواضع اظهرُ فيهِ من الاخلاق الحديثة التي تخلّق بها منذ قرون قليلة كالتديّن والتشكيك والكرم والبخل ولذلك تُرى ملامح الاخلاق الاولى واضحة في الوجه واما الاخلاق الثانية كالكرم والبخل فلا يظهر لها ملامح خاصّة بها

والكبرياء من الاخلاق القديمة ومن اكثرها ظهوراً تجدها في الطفل والشيخ والمتمدن والمتوحّش وملامحها واضحة لا تخفى على احد ولا تلتبس بغيرها ولذلك فمن اسهل الامور تقليد المتكبر المتجرف وتمثيل صورتهِ في الحجر والقرطاس

والقدماء من اهل الفراسة استدلوا على الكبرياء كما استدلوا على غيرها من الاخلاق بشكل الاعضاء كاستملاء العينين وارتفاع الحاجبين واتساع القدمين وحمرة الوجنتين . لكنهم لم يقتصروا على ذلك بل اعتدّوا ايضاً بالحركات التي عليها المعوّل الاكبر في الفراسة الصحيحة لان حركات المتكبر لا تخفى على احد ولا يسهل عليهِ اخفاؤها . وهي على ثلاثة انواع امارات الكبرياء مع الرضى وامارات الكبرياء مع القهر وامارات الكبرياء مع الرياء وهذه الاخيرة هي الامارات التي دمغتها التربية فلم تعد خشونتها ظاهرة . ومن النوع الاول ما يأتي